التعريف والنقد

التاريخ الحربي الإسلامي

في سلسلة من المؤلفات القيمة

صنع اللواء الركن محمود شيت خطاب

- ٢ -

الكتاب الأول

الرسول القائد

الطبعة الثالثة ، مطابع دار القلم — القاهرة ١٩٦٤ م

هذا كتاب جليل ، فيه تأريخ وفيه علم وفيه متعة ، يجدر بكل عربي ومسلم أن يقرأه ، كما يجدر بكل مؤرخ وعسكري أن يضمه إلى مكتبته ، حلّل مؤلفه بعمق ، ودرس باخلاص ، **الجانب العسكري** من سيرة الرسول الأعظم محمد ﷺ ، مثبتاً فيه مواهب الرسول العسكرية والإدارية ، كاشفاً عن عبقريته الفذّة التي حققت النصر لجيوش المسلمين بتأييد من الله عزّ وجلّ .

أخرجت الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٥٨ م المطبعة الإسلامية في بغداد في ٣٧٦ صفحة من القطع المتوسط ، وتولى مؤلفه تقديمه إلى القراء قائلاً : « لقد تحدث مؤرخو السيرة عن معارك الرسول ﷺ باسهاب أو باقتضاب ، ومع ذلك فإن الباحث يخرج من دراسة كل معركة دون أن يلم بكل تفاصيلها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ووقائعها ودوافعها ، ويعود ليسأل نفسه : ما هو موقف الطرفين قبل المعركة ؟ كيف جرى القتال ؟ وما هي الدروس التي نستفيدها من المعركة ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الحيوية الملحة . إن وصف معارك القواد المسلمين ، وعلى رأسهم الرسول ﷺ بهذا الأسلوب الذي لا يقنع باحثاً ولا يشفي غلة دارس ، جعل تاريخ الحرب الحديث يورد أمثلة من أعمال القواد غير المسلمين ... ولا يورد أمثلة من أعمال القواد المسلمين ... بينما يدرّس هذا التاريخ للمسلمين وفي بلاد المسلمين ! » .

ويميط اللواء خطاب اللثام عما كشفه في سيرة الرسول الأعظم قائلاً : « لقد قرأت أكثر كتب السيرة في تدبر وإمعان ، وحاولت أن أستشف منها كل نواحي العظمة التي تتسم بها شخصية الرسول ﷺ ، ولكني وجدت أن **عبقريته العسكرية** التي لا تتطاول إليها أية عبقرية أخرى لأي قائد في القديم أو الحديث ، تكاد تكون متوارية محجوبة لم يتح لها من يكشف أسرارها ويجلي عظمتها بأسلوب حديث يجنح إلى الكشف والتحليل وإبراز المواهب النادرة ، وخاصة من عسكري يستطيع أن يلم بنواحي العظمة العسكرية التي تكمن فيها ويظهرها جلية للعيان . » .

وأخذ اللواء خطاب يعمل جاهداً لتأليف كتاب ، متوخياً فيه تنسيق المعلومات التاريخية وكل ما يتصل بالشؤون الحربية الواردة في كتب السيرة ، وعرضها من جديد بأسلوب بسيط ، فكان كتابه القيم « **الرسول القائد** » : وفي هذا الكتاب سجل المؤلف جميع المعارك التي خاضها المسلمون بقيادة الرسول ﷺ ، عارضاً على قرائه الموقف العام لكل من المسلمين وخصومهم قبل كل معركة ، مبيناً عدد قوات كل منها وأهدافها الحربية ، متحدثاً عن سير الحوادث قبل القتال وأثناءه وبعده ، ومن ثم عن نتائج كل معركة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والدروس التي يمكن أن تستخلص منها من الناحية العسكرية ، ولقد أغفل المؤلف بعض الظواهر الخارقة والمعجزات النبوية التي لا يمكن أن تحدث في الحروب العادية بين فريقين متطاحنين من البشر ، وهي المعجزات والخوارق التي أيّد الله بها نبيه الكريم ، أغفلها المؤلف لا لأنه لا يؤمن بها ، فهو رجل مسلم ، وتلك المعجزات والخوارق ـ كما يقول ـ « أمر يؤمن به كل مسلم ، وقد أثبته القرآن بما لا يدع فيه مجالاً لشك أو ريبة » ولكن لأن « الخوارق **لم تكن وحدها أداة النصر** والعامل الذي غلب به الرسول ، والذين يذهبون إلى هذا يسلبونه قوته كقائد ، وكيف يحتذي المسلمون سيرته ويتبعون في الحروب نهجه وسنته ، إذا لم يكن لفنه الحربيّ الأصيل ومواهبه العسكرية النادرة ، الأثر العظيم في ظفره ونصره . إن الخوارق كانت إيذاناً للنبي بأن الله معه لا يتخلى عنه ، حتى يشحذ همته ويثير عزيمته وينبهه بكل ما فيه من حواس اليقظة إلى أعدائه المحاربين » .

وينتهي اللواء خطاب في مقدمته إلى القول : « إن المسلم الصحيح هو الذي يقدّر الرسول ﷺ حقّ قدره ، فيعترف بأن كفاءته ﷺ **قائداً ممتازاً** وكفاءة أصحابه **جنوداً ممتازين** ، هي التي أمّنت لهم النصر » .

وخرج كتاب « **الرسول القائد** » من المطبعة ، فقرىء في العراق وبعض البلاد العربية ، غير أن ظروف طبعه عام ١٩٥٨ م لم تسمح للكتاب بأن ينتشر في كثير من البلاد العربية والإسلامية ، مما دفع مؤلفه لإعادة طبعه ثانيـــة فكتب مقدمة لهذه الطبعة قال فيها : « الله يعلم أنني لم أرد بهذا الكتاب إلا وجهه الكريم . وأن أقضي واجباً كنت ولا أزال أشعر بثقل مسؤوليته الجسيمة خدمة للرسول القائد بإظهار ناحية الجهاد في الإسلام مبسّطة في جهاد النبي العربي العظيم ، لهـــذا وافقت على إعادة طبعه ليتيسّر اقتناؤه في أوسع نطاق من بلاد المسلمين » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واشتد الطلب على هذا الكتاب ، بعد أن نفدت طبعته الثانية أيضاً ، فقامت « **دار القلم** » بإعادة طبعه طبعة جديدة متقنة على ورق صقيل ، بعد أن أعاد المؤلف النظر في الطبعة السابقة فنقحها وزاد عليها بعض الشيء ، فأضحى الكتاب في نحو من ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط ، وهو مزين بعدد من الخرائط والمخططات والرسوم التي توضح موضوعات الكتاب المتضمنة التاريخ الحربي للمسلمين منذ ظهور الإسلام حتى انقضاء عهد الرسول الكريم ﷺ .

★ ★ ★

قسم المؤلف كتابه إلى خمسة عشر فصلاً ، اختار لها من آي القرآن الكريم أو من وقائع التاريخ العناوين التالية :

١ — **الحرب العادلة** : تكلم المؤلف في هذا الفصل عن معنى القتال في الإسلام ، وأنه ما شرع فيه إلا لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد السلام ، كما تكلم عن أهداف هذا القتال وأنواعه ، وكيفية تنظيمه ، وشروط التجنيد من أجله ، ومما أشار إليه المؤلف ، أن التجنيد في الإسلام كان يشمل النساء البالغات ، إلى أن قامت الدولة العباسية ، فأضاف الفقهاء « **الذكورة** » إلى شروط التجنيد ، ويعلق المؤلف على هذا الشرط قائلاً إنه : « **انحراف لا يقوّه الإجماع** » ، ولما ذكر « **الاسلام** » شرطاً آخر من تلك الشروط ، علّق هذا الشرط قائلاً : « ليدافع ـ المجنّد ـ عن بلاد المسلمين عن عقيدة وإخلاص » ونرى أنه كان من المستحسن أن يشير المؤلف في تعليقه هذا إلى إمكان الاستثناء من هذا الشرط في ظروف معينة ، إذا ما رأى الإمام مصلحة للمسلمين تدعو إلى هذا الاستثناء ، وأهم هذه الظروف حالة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تطوع الذميين التي أشار المؤلف إليها في الفصل نفسه من الكتاب قائلاً : « إن الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة في الجيش ، والذمي الذي يقبل التطوع في الجيش الإسلامي تسقط عنه الجزية »(١) .

ومما لفت نظرنا في هذا الفصل تعريف الحرب العادلة بأنها : « هي التي توجّه ضد **شعب ارتكب ظلما** نحو شعب آخر ولم يشأ رفعه ، ويشترط فيها : أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية . . . » ولو أبدل المؤلف - كما نرى - بكلمة « **شعب** » الأولى كلمة « **دولة** » لكان التعريف أرحم بالشعوب والأمم فالظلم ليس من شيمها بمقدار ما هو من شيم « **الدول** » التي تضمها ، أعني ملوكها وحكامها من الطغاة والمستبدين .

٢ — **قبل نشوب القتال** : وفي هذا الفصل تكلم المؤلف عن الموقف العسكري للمسلمين مذ قامت الدعوة إلى الإسلام سرًّا ، إلى أن تمّ تنظيم صفوف المسلمين بعد هجرتهم إلى يثرب ، وأعطى القارئ فكرة واضحة عن الموقف العسكري للمسلمين من جهة ولكل من المشركين والفرس والروم من جهة ثانية ، وأجاب المؤلف ، في توضيحه الموقف العسكري للطرفين ، كل من يتساءل عن هذه السرعة الفائقة التي تم بها الفتح الإسلامي وإقامة **دولة الاسلام** العظيمة ، فقد كانت غلبة المسلمين — كما يرى المؤلف — أمراً يحتّمه ذلك الموقف .

٣ — **الدفاع عن العقيدة** : خصّ المؤلف هذا الفصل بالكلام عن دوريّات القتال التي كان الرسول ﷺ يبعث بها من المدينة للنواحي بغاية إشعار المشركين واليهود بقوة المسلمين ، كي يتاح لهم القيام بنشر دعوتهم

(١) أنظر ص ٣٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والدفاع عن عقيدتهم باطمئنان ، وألحقَ المؤلف بهذا الفصل جدولاً مفيداً ذكر فيه بجانب اسم كل غزوة أو سريّة بعثها الرسول الكريم اسم قائدها وقائد المشركين ، وتاريخ وقوعها ، والنتائج العسكرية التي أسفرت عنها .

٤ ــ **الصراع الحاسم بين عقيدتين** في هذا الفصل حدثنا المؤلف عن غزوة بدر الكبرى ، **المعركة الحاسمة الأولى** في تاريخ الإسلام ، وعن كل ما يتصل بها . فتحدث عن قوات الطرفين قبل المعركة وبعدها ، وعن غاية كل طرف منها ، وعن سير القتال وخسائرها ، وعن أسباب انتصار المسلمين المتمثلة في قيادة موحدة وتعبئة جديدة وعقيدة راسخة ومعنويات عالية ، وختم المؤلف الفصل ببيان الدروس المستفادة من هذه المعركة ، وبقائمة بأسماء شهداء بدر ومن شهدها من المسلمين على اختلاف قبائلهم .

٥ ــ **القاعدة الأمينة** : ويقصد المؤلف بها مدينة الرسول الكريم « **يثرب** » ، وقد بين في هذا الفصل كيف قام الرسول ﷺ بتطهير المدينة من اليهود بحصار بني قينقاع ، بعد أن أظهروا عداوتهم للإسلام ، ثم بين كيف فرض الحصار الاقتصادي على قريش بعديد من الغزوات ، وفي نهاية الفصل بين الدروس المستفادة من حركات التطهير هذه التي كانت « **حرباً باردة** » كما تسمى في المصطلح العسكري الحديث ، وبها تم للمسلمين جعل المدينة « **قاعدة أمينة** » للإسلام ، قم لهم بعدئذ الفوز والنصر المبين .

وكم سيصبح عمل المؤلف جليلاً بالغ القيمة لو استطاع ــ من أجل طبعة قادمة ــ القيام بزيارة الأماكن التي جرت فيها معارك المسلمين الهامة ، ثم وصفها لنا بدقة القائد الخبير بأرض المعركة ، على أنه يجدر به ــ على الأقل ــ القيام بتحقيق مواضع وأسماء الأماكن التي وردت في أبحاثه دون الاكتفاء في تحديد مواقعها بما ورد في معجم البلدان أو في كتاب الطبقات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لابن سعد ، أو في غيرها من المعاجم غير الموثوقة في المعلومات الجغرافية ، خاصة في مثل هذا العصر الذي تغيّرت فيه معالم كثير من البلدان والأماكن أو تبدلت أسماؤهـا ، أو اختلفت تبعيّتها السياسية ، ولنضرب أمثلة على بعض أسماء الأماكن الواردة في ثنايا الكتاب نقتطفها من هذا الفصل ومن غيره من الفصول :

أ — في الصفحة ١٤٣ ورد ذكر بني قَيْنُقاع ، الذين تركوا المدينـة وساروا نحو بلاد الشام حتى بلغوا « **أذريعات** » وفي هامش الصفحة قال المؤلف : « أذريعات : موضع كائن في منطقة شرقي الأردن حالياً بين أجنادين والشام » وفي الصفحة ٢٣٦ في معرض الكلام على غزوة بني قُرَيْظة ورد أن اليهود عرضوا على النبي ﷺ الخروج إلى « **أذْرِعات** » وفي هامش الصفحة قال المؤلف : « أذرعات : بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان : انظر معجم البلدان » .

إن البلدتين المذكورتين في العبارتين السابقتين مقصود بهما مدينة واحدة والصياغة الثانية أصح ، على ما ورد في أمهات العربية (١) ، وأذرعات ، بكسر الراء وقد تفتح ، **مدينة سوريّة اليوم** ، وهي مركز إحدى محافظات الجمهورية العربية السورية المجاورة للمملكة الأردنية ، واسمها المشهور الآن هو « **دَرْعا** » بتسكين الراء .

ب — في الصفحة ٢٤٣ ورد ذكر سرّية زيد بن حارثة إلى « **حِسْمى** » وعلق المؤلف في الهامش قائلاً : « حسمى : أرض بادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان وبين وادي القرى والمدينة ست ليال : انظر التفاصيل

(١) في تاج العروس : أذرعات بلد بالشام قرب البلقاء من أرض عمان تنسب إليه الخمر .. وقال يعقوب في البدال : يذرعات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

معجم البلدان » . وأرض حسمى واضحة على خريطة المملكة العربية السعودية اليوم ، وهي واقعة غربيّ تبوك بينها وبين مدين على ساحل البحر الأحمر ، وقد أثبت اسمها على الخريطة بصيغة « **حسما** »(١) .

هـ — في الصفحة ٢٩٥ عند الكلام على غزوة « **مُؤْتة** » قال المؤلف في الهامش : « **مؤتة** قرية من قرى البلقاء في حدود الشام . انظر التفاصيل في معجم البلدان . وهي بأدى ـ أدنى ـ البلقاء ، والبلقاء دون دمشق . انظر طبقات ابن سعد » . ومؤتة : موضع في الجنوب الشرقيّ من البحر الميت ، وهو اليوم في **المملكة الأردنية الهاشمية** .

ز — في الصفحة ٣٨٧ ورد ذكر غزوة **تَبُوك** فعلق المؤلف في الهامش قائلاً : « تَبوك : موضع بين وادي القرى والشام ، وهو حصن به عين ونخل . أنظر التفاصيل في معجم البلدان » وكان من حق هذا الموضع الهام أن يشار إلى أن مدينة هامة تقوم فيه اليوم ، وهي من البلدان المعروفة في الشمال الغربيّ من **المملكة العربية السعودية** ، واقعة على الخط الحديديّ الذي كان يصل دمشق بالمدينة .

ح — في الصفحة ٣٩٢ ورد ذكر **البَلْقاء** فنقل المؤلف عن معجم البلدان تعريفها قائلاً : « كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان » والبلقاء اليوم أهم محافظات **المملكة الاردنية الهاشمية** ، وأهم مدنها عاصمة المملكة « **عمان** » . تليها السلط ثم مأدبا .

---

(١) هذه الخريطة من أحدث وأدق الصورات للمملكة العربية السعودية وقد طبعتها حديثاً « شركة الزيت العربية السعودية » وفي تاج العروس : حسمى بالكسر مقصورة : أرض بالبادية بها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد الفتام يفارقها ... وإليها كانت سرية زيد بن حارثة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ط ــ في الصفحة ٣٩٣ ورد ذكر مصالحة المسلمين لصاحب « **أيْلَة** » ونقل المؤلف في الهامش عن معجم البلدان تعريف هـــذه المدينة فقال : « أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام وهي آخر الحجاز وأول الشام » وكان من الواجب بيان أن هذه المدينة تقع في شماليّ ما يسمى اليوم بخليج **العقبة** وهي ميناء في **أرض فلسطين** المحتلة جنوبيّ النقب ، وكُتّاب العصر أصبحوا يرسمون اسمها تقليداً بصيغة « **إيلات** » .

ج ــ في الصفحة ٢٩٠ ورد ذكر يهود **تَيْماء** ، وعرّف المؤلف هذه البلدة قائلاً : « تيماء : بلد في أطراف الشام ، بين الشام ووادي القرى . انظر التفاصيل في معجم البلدان » وبلدة تيماء معروفة اليوم في جنوبيّ الحفرة في الشمال الغربيّ من **المملكة العربية السعودية** ، وهي واقعـــة على الطريق الرئيسة بين المدينة وتبوك .

د ــ في الصفحة ٢٩١ عند الكلام على سريّة أبي بكر الصديق إلى بني كلاب في نجد ورد ذكر ناحية « **ضَرِيّة** » فعرّفها المؤلف قائلاً : « ضرية : قرية في نجد غامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة . انظر التفاصيل في معجم البلدان » القرية المذكورة من قرى نجد المعروفة حتى اليوم وهي واضحة في خريطة **المملكة العربية السعودية** وتقع في الجنوب الغربيّ للقصيم شماليّ الطريق الكبرى التي تصل الرياض بمكة .

و ــ في الصفحة ٢٩٦ عند الكلام على غزوة مُؤتَة ذُكر وصول قوات المسلمين **مَعَان** من أرض الشام ، وعرّف المؤلف هذه البلدة قائلاً : « معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء ، انظر التفاصيل في معجم البلدان » ومعان اليوم مدينة أردنية وهي مركز إحدى محافظات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المملكة الأردنية الهامة ، وتقع على الطريق الرئيسة الواصلة بين عمان وتبوك من جهة ، وبين عمان والعقبة من جهة ثانية .

٦ — **النصر المغلوب** : خصّ المؤلف هذا الفصل بغزوة أُحُد ، فتكلم فيه عن الموقف العام الذي كان عليه المسلمون والمشركون على السواء ، ثم تحدث عن سير القتال ونهاية المعركة مع بيان دقيق عن خسائر الطرفين ، وأسباب نكبة المسلمين ، والدروس المستفادة من هذه المعركة مع دراسة عميقة لنتائجها ، وهل كانت في حقيقتها انتصاراً للمشركين واندحاراً للمسلمين ، أم أنها كانت شيئاً آخر ؟ وأعلن المؤلف رأيه صريحاً بقوله : أنا لا أتفق مع المؤرخين في اعتبار نتيجة (**أحد**) **نصراً للمشركين واندحاراً للمسلمين** ، لأن مناقشة المعركة عسكرياً ، تظهر انتصار المسلمين على الرغم من خسائرهم الفادحة في المعركة » ثم ناقش هذا الرأي مناقشة عسكرية رائعة انتهى فيها إلى اثبات أن معركة أحد وإن كانت « **نصراً تَعْبَوِياً** » للمشركين فإنها كانت « **فشلاً سَوْقياً** » لهم ، قائلاً : « **ولا يُعَدّ النصر التعبويّ شيئاً يذكر إلى جانب الفشل السَوقيّ** » .

٧ — **إعادة النظام** : في هذا الفصل تكلم المؤلف عن التطهير الجديد الذي اضطر المسلمون إليه بعد معركة أحد ، لكي يستعيدوا سمعتهم الممتازة لدى مختلف القبائل العربية ، وذلك بعد أن تكشفت لهم عيوب وعقبات ومشاكل داخلية وخارجية بسبب وجود منافقين بينهم وقيام يهود بالقرب منهم ، وبسبب ما قامت به قريش من تأليب العرب عليهم ، وقد بين المؤلف الغزوات التي قام بها المسلمون في سبيل إعادة النظام إلى صفوفهم ، مع تعداد الدروس المستفادة من تلك الغزوات ، وفي أولها ما أسماه « **الابداع** » المتمثل بسرعة الخاطر في إعطاء القرار الحازم الصحيح في المواقف الحرجة ، وذلك من أجل سبق العدو في العمل وإرغامه على تبديل الخطة التي رسمها لنفسه ، وهو الأمر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذي قام به الرسول ﷺ في هذه الفترة التي خصّ المؤلف هذا الفصل بها ، مما يدل **مزية من أعظم مزايا القائد الكفؤ** .

٨ — **هازم الأحزاب** : خصّ المؤلف هذا الفصل بـ « **غزوة الخندق** » وسير القتال فيها وأسباب فشل الأحزاب ، والدروس العسكرية المستفادة من هذه الغزوة ، وكيف انتقل المسلمون ، في اليوم الذي انتهت فيه ، من دور الدفاع إلى دور الهجوم ، مصداقاً لما قاله الرسول ﷺ يومئذ لأصحابه : « **الآن نغزوهم ولا يغزوننا** » .

٩ — **القصاص العادل** : وهذا فصل خصّه المؤلف بمحاسبة الغادرين من يهود ومشركين ، فتكلم فيه عن « **غزوة بني قُرَيْظة** » وغيرها من الغزوات ، والسرايا التي أمر بها الرسول ﷺ من أجل توطيد الأمن وتشديد الحصار الاقتصادي على المشركين ، ثم بين المؤلف الدروس المستفادة من كل تلك الغزوات والسرايا ومن أهمها ما يسمى بالمصطلح العسكري « المباغتة » وهي من « أهم مبادئ الحرب قديماً وحديثاً ، وقد حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ في أكثر غزواتهم ، مما ساعدهم على النصر » .

١٠ — **الفتح القريب** : وفي هذا الفصل تكلم المؤلف عن « **غزوة الحديبية** » وعن الموقف الحربي العام بين المسلمين والمشركين ، وعن المفاوضات التي جرت بين هؤلاء وبين النبي ﷺ وانتهت بهدنة انبثق عنها « **عهد الحديبية** » ثم بيّن الدروس المستفادة من تلك الهدنة ، ومن أهمها ما أسماه في المصطلح العسكري « **الضَبْط** » وعنى به انجاز العمل المطلوب على أحسن وجه مع حبس الانفعالات الناجمة عن أي ظرف أو حالة من الحالات الصعبة التي تواجهها القوات المحاربة ، وأوضح المؤلف بعدئذ المزايا القيادية التي تحلى بها الرسول ﷺ ، والتي مهدت للفتح العظيم ومن ثم لانتشار الإسلام بالسرعة العظيمة التي انتشر بها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

١١ — **فترة الهدنة** : تكلم المؤلف في هذا الفصل عن الثمرات التي جناها المسلمون من « **عهد الحُدَيْبِيَة** » ، وعن « غزوة خَيْبر » التي أثمرت نهاية يهود من الجزيرة العربية ، كما تكلم عن سرايا تأديب الأعراب الذين كانوا يعيشون بالأمن فساداً ، يغيرون على المدن ويغدرون بالناس ؛ وأخيراً تكلم المؤلف عن الغزوات والسرايا التي قام بها المسلمون في هذه الفترة والدروس التي يمكن استخلاصها من كل واحدة منها ، ومن أهم ما تم في الفترة المذكورة قيـــام النبي عليه الصلاة والسلام بتوجيه **كتب إلى ملوك الدول المجاورة** يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام ، ومنها أيضاً شروق شمس الإسلام على جميع أرجاء الجزيرة العربية .

١٢ — **عودة المستضعفين** : في هذا الفصل حدثنا المؤلف عن أولئك المسلمين الذين نزلت بحقهم الآية الكريمة : « ونريدُ أن نَمنَّ على الذينَ استضعِفُوا في الأرضِ ونجعلَهُم أئمّةً ونجعلَهمُ الوارثين » كيف منّ الله عليهم بفتح مكة ، وكيف دخلوها أعزة بالإسلام بعد أن أخرجهم قومهم منها أذلة ، ثم بيّن لنا الدروس المستفادة من معركة الفتح التي وصفها بقوله أنها كانت « **معركة معنويات وتخطيط سليم** » أكثر منها « **معركة ميدان وقتال** » ، معركة انتهت بانتصار عقيدة التوحيد وبتحطيم الأصنام التي كانت تعبد من دون الله .

١٣ — **استثمار الفوز** : وخصّ المؤلف هذا الفصل بالحديث عن « **غزوة حنين** » وبحصار الطائف وسرايا الدعوة ، والدروس المستفادة من كل ذلك .

١٤ — **مولد امبراطورية** : خصّ المؤلف الفصل الرابع عشر من كتابه بالكلام على « **غزوة تبوك** » ، الغزوة التي انتصر فيها المسلمون على جيوش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الروم وأذنت بقيام « **دولة الاسلام** » وقد عالج المؤلف الأسباب المباشرة للغزوة وأسبابها غير المباشرة ، مبيناً أهمية الإستعدادات العسكرية والمصالحات التي قام بها الرسول ﷺ في سبيلها ، ثم تكلم عن « **سرايا الدعوة** » التي بعث بها إلى اليمن والشام ، وعن الدروس المستفادة من كل ذلك ، وفي طليعتها تطبيق مبدأ من أهم مبادىء الحرب الحديثة والمسمى « **الحرب الجماعية** » ، ذلك المبدأ الذي أوضحه قائد ألماني كبير من المعاصرين بقوله عن الحروب الحديثة : « إنها تقوم على حرب الأمم ضد الأمم ، ولهذا يجب أن تضع الأمة كل قواها الفعلية والأدبية والمادية في خدمة الحرب ، وأن تكون هذه القوة مخصصة للحرب التالية » .

١٥ — **التطبيق العملي** : واختتم اللواء خطاب كتابه « القائد الرسول » ببحث مقارن عن المبادىء المثالية التي جاء بها القرآن الكريم والخاصة بأغراض وأهداف وتنظيم ما يسمى بعصرنا الحديث بـ « **الحرب العادلة** » .

لقد ردّ المؤلف جميع الانتصارات العظيمة التي حققتها جيوش المسلمين بقيادة الرسول ﷺ إلى عوامل عسكرية محضة ، وهي إلى جانب تأييد الله عز وجل لمن اتبع دينه القويم ، تتلخص في الأسباب الأربعة التالية :

أ — قيادة عبقرية .

ب — جنود ممتازون .

ج — حرب عادلة .

د — تردي الموقف العسكري لدى أعداء الإسلام .

وقد شرح المؤلف الكريم كل سبب من هذه الأسباب شرحاً وافيا ، مقارناً كل العوامل التي رافقت معارك الرسول ﷺ بأحدث الأساليب العسكرية ، مبيناً معنى كل مصطلح عسكري حديث استعمله في بحثه كالمباغتة ، والاقتصاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالمجهود ، وتوفير الأمن ، والمرونة ، وسبق النظر ، والتعرّض ، وإدامة المعنويات ، وحسن الإدارة وغيرهـا ، وكل ذلك بلغة مبسطة سهلة جديرة بالإعجاب والتقدير .

وهكذا انتهى اللواء خطـاب إلى القول بأن الأرض **إنما يرثها عباد الله الصالحون** .

★ ★ ★

يوم بدأت في قراءة كتاب « **الرسول القائد** » وقفت طويلاً عند قول المؤلف في مقدمته للطبعة الثانية : « .. وسيجد القراء الكرام ، **أن الحرب في الاسلام حرب دفاعية بكل ما في الكلمة من معنى** ، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد .. » وتَدَاعَتْ عليَّ الأفكار أمام هذه الجملة التي اعتدنا قراءة ما تضمنته من معنى ، في كثير من الكتب والمقالات ، أو سماع مثلها في كثير من الخطب والمحاضرات ، وهي ترد عادة في **معرض الدفاع عن سمعة الاسلام** ونفي ما يزعمه أعداؤه من أنه دين قام على الإكراه وإجبار الناس على الدخول فيه ، أو ترد في معرض الرد على من يزعم بأن دولة الاسلام ما قامت إلا على سواعد رجال بُداة أتقنوا صناعة الموت فحملوا السيف واجتاحوا البلاد المجاورة لهم ، فلما خضعت لقوتهم بعض الشعوب والدول ، أقاموا دولتهم على أنقاض ما هدموه من ممالك .

* *

إن فكرة « **القتال في الاسلام حرب دفاعية لا هجوم فيها** » فكرة تهزّ مشاعر المسلمين وتطرب لها نفوسهم وتسكن إليها ، كلما سمعوها أو قرأوها رداً على هجمات أعداء الاسلام وخصومه ، إذ أن فيها تأكيداً على أن الدولة الاسلامية دولة إنسانية ، لا تحارب إلا **حربا عادلة دفاعاً عن نفسها** ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما أن فيها إظهاراً لحقيقة الاسلام ، وأنه **دين الرحمة والسلام** ، لا إكراه فيه ولا اعتداء على أحد ، والله عزّ وجلّ يقول في محكم كتابه : « لا إكْرَاهَ في الدّين » كما يقول : « وقاتِلوا الذينَ يُقاتِلونَكُم ولا تَعْتَدُوا إنّ اللهَ لا يُحِبُ المُعْتَدِين » .

ولكن هل الآيتان المذكورتان وآيات كثيرة ورد فيها النهي عن الاعتداء أو الأمر بالجُنُوح للسَّلْم ما جنح أعداء الإسلام إليها ، **توقف حكم** آيات أخرى تأمر بـ « **الجهاد** » وتحث المسلمين عليه كقوله وهو أعز قائل : « إنّ اللهَ اشترى من المُؤْمِنين أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ ، بأنّ لَهُمُ الجَنّةَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ فيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وَعْداً عليهِ حقّاً في التّوْراةِ والإنجيلِ والقرآن ، ومنْ أوفى بعهدِهِ منَ اللهِ ؟ فاستَبْشِرُوا ببَيعِكُمْ الذي بايَعْتُمْ بهِ وذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم » وقوله تعالى : « يا أيُّها الذينَ آمَنُوا قاتِلوا الذينَ يَلُونَكُمْ منَ الكُفّارِ وليَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أنّ اللهَ معَ المُتّقين » ؟ وهل حكم ـ الجهاد ـ الذي يدعو الإسلام إليه **منسوخ بحكم الآيات التي تحرّم الاعتداء** ؟ أو هل أنّ الجهاد في الاسلام **يتمثل في دفع المعتدين** فقط ، ولا يشمل **هجوماً** على عدو لم يبدأ المسلمين بقتال أو ما في حكمه ؟

يكاد الاتفاق بين علماء المسلمين يكون تاماً على أن آيات الجهاد والقتال في القرآن الكريم ليس فيها حكم منسوخ ، بل **كلها محكم يجب العمل به** ، خاصة وأن أكثر آيات الجهاد وردت في سورة التّوبة وهي من آخر سور القرآن نزولاً ، كما أنه ليس في أسباب نزول أو في نصوص آيات الأمر بالامتناع عن الاعتداء أو الإكراه في الدين ، ما يستفاد منه **أي تخصيص أو تقييد لعموم وإطلاق** تلك الآيات ، أي لا يمكن الاستدلال من النصوص بأن آيات الجهاد في القرآن الكريم مخصصة أو مقيدة بآيات أخرى ، وبالتالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يمكن القول اعتماداً على النصوص بأن القتال في الاسلام لا يكون إلا دفاعاً لردّ اعتداء بُدئ فيه ، أو بتعبير آخر لا يمكن القول اعتماداً على النصوص القرآنية بأن **الحرب الهجومية محرمة في الاسلام** .

حقاً إن الإسلام — كما هو صريح النصوص القرآنية — يدعو للسلام ويأمر بالجنوح للسلم كلما جنح الأعداء لها ، وحقاً إن الإسلام يحرم الاعتداء ويأمر بعدم مقاتلة غير المقاتلين ، كما أنه ينهى عن تجاوز حدود القتال بقتل غير المحاربين أطفالاً كانوا أو نساءً أو شيوخاً أو رجال دين ، ولكن هل **الجهاد في سبيل الله** الذي وصفه الرسول ﷺ : بأنه إحدى شعب الإيمان الثلاث ، ينحصر في **دفع الاعتداء** فقط ، ولا يباح فيه قتال من لم يبدأ القتال الفعلي ؟

يرى فريق كبير من علماء المسلمين ، الذين عالجوا هذا الموضوع في هذا العصر ، أن الجهاد هو الدعوة إلى الاسلام **والقتال في سبيل هذه الدعوة** حتى تنزل الأمم والشعوب على حكم الاسلام ، فإذا نزلت ، فالناس لا يكرهون على الدخول في الاسلام ولكل امرئ عندئذٍ الدين الذي يرتضيه ، وبعبارة أخرى : الجهاد لا يكون لإكراه الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل هو **إعلاء لكلمة الله ودعم لدولة الاسلام** ، لذلك فالجهاد كما يكون حرباً دفاعية يكون **حرباً وقائية** ، وقد يكون **حرباً هجومية** يبدأ المسلمون فيها بالقتال كلما اضطروا لها أو وجدوا مصلحة للاسلام فيها .

كما يرى هؤلاء العلماء أنفسهم ، أن فكرة « **الحرب الدفاعية** » وصفاً للقتال الذي شرعه الاسلام ، **ليست فكرة إسلامية أصيلة** ، بل هي فكرة حديثة طارئة نجمت عن احتكاك المسلمين بالإفرنج ، بعد عصور طويلة من الانحطاط والضعف ، فلما بدأ المسلمون نهضتهم الحديثة في القرن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الماضي ، وأخذوا يقرأون ما كتبه الأوربيون عنهم ورأوا المستشرقين منهم خاصة يخوضون في أحكام الجهاد في الاسلام ، وبعضهم ينعي على الاسلام تلك الأحكام ، ويصمه بالوحشية مفترياً عليه بأنه قام على إكراه الناس حتى يكونوا مسلمين ، قام المتنورون من علماء المسلمين يدافعون عن دينهم **بتنزيه الجهاد عن أن يكون غير حرب دفاعية** لا هجوم فيها ولا اعتداء ، غافلين عما قد ينجم عن هذا الدفاع من إضعاف لمعنى الجهاد وحطّ من شأنه في دعم دولة الاسلام .

وقد وصل الشك بالمستشرقين ، عند بعض أولئك العلماء ، إلى اتهامهم بدسّ فكرة « **الجهاد حرب دفاعية** » على المسلمين ليقولوا بها ، حتى يُفقدوا الجهاد سلطانه على المسلمين ويبطل سحره في جماهيرهم ، لأن بعض ملوك المسلمين بعد أن تجزأت دولة الإسلام إلى ممالك وإمارات لا تجمع بين شعوبها إلا رابطة الدين ، كانوا يحتمون بسلاح التهديد بـ « **إعلان الجهاد** » تجاه مطامع الدول الأوربيّة في بلادهم ، كما كان بعضهم يلجأ إلى إعلان هذا الجهاد كلما اشتبك بحرب مع دولة من الدول الأجنبية . والشّاكّون بكون المستشرقين أول من قال بالفكرة المذكورة ، لا يفرقون بين أن يكون أول من جرت على قلمه الفكرة ، إن كان من المستشرقين ، **حسن النية** كتبها وهو يعتقد بأنه ينصف الإسلام بها تجاه افتراء علماء قومه ، أو أنه كان « **سيء النيّة** » دسّ الفكرة لتنتشر بين المسلمين فينفلّ سلاح ملوكهم ويفقدوا قوة كامنة في العالم الإسلامي كانت ترهب أصحاب المطامع الصليبية .

لقد كان من حق التأريخ أن يتفرغ متخصص لدراسة حقيقة منشأ الفكرة المشار إليها ، لنعرف وجه الصواب في الدافع اليها ، غير أن أكثر العلماء المسلمين المعاصرين الذين تعرّضوا لدراسة موضوع الجهاد في الإسلام ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أخذوا فكرة « **القتال في الإسلام حرب دفاعية** » وكأنها فكرة مسلم بها ، استناداً إلى الآيات القرآنية التي تحرم الاعتداء ، وتنهى عن قتال من لم يبدأ المسلمين بالقتال ، حتى إذا ما صدر الجزء الأول من أضخم كتاب في الفقه الإسلامي يبحث فيما يسمى « **العلاقات الدولية** » تأليف الإمام محمد بن الحسن الشيباني(١) ، قام الأستاذ الكبير محمد أبو زهرة ، الذي كتب مقدمة قيمة لهذا الكتاب ، بترديد فكرة « الحرب الدفاعية » محاولاً تفسيرها بتوسيع مفهومها حتى يتلاءم مع مفهوم « الجهاد » فقال(٢) : [.. ومن أجل ذلك شرع القتال في الإسلام ، فقد شرع على أنه أساس لدفع الاعتداء ، قال تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ونرى في هذا النص الكريم دلالة على أمرين جليلين : أحدهما — أن القتال في الاسلام إنما أبيح لرد الاعتداء بمثله ، فهو لا يقاتل إلا الذين يعتدون على أهله ويقاتلونهم . الأمر الثاني — أن يلاحظ من يرد الاعتداء أنه أبيح له القدر الضروري للدفاع ، فلا يصح له أن يعتدي فلا يتجاوز حد الدفاع . . .] ومن ثم يستقري الأستاذ أبو زهرة حروب النبي ﷺ فيجدها كانت لأحد أمرين :

---

(١) كتاب « السير الكبير » للامام الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ هـ بشرح الإمام السرخسي المتوفى سنة ٤٩٠ هـ . وقد بدأت جامعة القاهرة بطبعه بطلب من « الجمعية الشيبانية » التي ألفت في أوربة لإحياء ذكرى الإمام الشيباني باعتباره أول من خص القانون الدولي العام بكتاب مستقل ، وقد مهد لطبعة جامعة القاهرة وعلق عليها الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة وحقق نصوصه الأستاذ مصطفى زيد ، وقد صدر الجزء الأول من الكتاب سنة ١٩٥٨ م . هذا وإن معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية قام أيضاً بنشر ثلاثة أجزاء من الكتاب نفسه بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

(٢) انظر الصفحات ٤٤ — ٦١ من طبعة جامعة القاهرة من الجزء الأول لكتاب السير الكبير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

[أولها : اعتداء بالفعل من الذين قاتلهم ... وليس من اللازم أن يقع الاعتداء بالفعل ، بل قـــد يكون السبب هو العمل على الاعتداء ... الأمر الثاني : .. أن يقف الملوك والأمراء محاجزين دون الدعوة الاسلامية ، فإنه لا بد للحق من دعاية إليه وأن يكون الناس أحراراً في اعتناقه ..] إلى أن يقول : [يقرر الجمهور الأعظم من الفقهـاء أن القتال في الاسلام ما أبيح للغلبة ولا للمخالفة في الدين ، إنمـا أبيح لدفع الاعتداء ...] على أن الأستاذ أبا زهرة ينتهي في كلامه على مفهوم القتال في الاسلام ؛ إلى القول : [وإنه بمقتضى القواعد المقررة في الاسلام : لا يمكن أن تكون الحرب فيه لغير الدفاع وإن لبس الدفاع لبوس الهجوم ..] .

★ ★ ★

كانت كل هذه الأفكار حول فكرة « القتـــال في الإسلام لا يكون إلا دفاعا » تدور في ذهني وأنا أقرأ مقدمة الطبعة الثانية من كتاب « الرسول القائد » ورجوت في نفسي أن يكون المؤلف موفقاً في معالجة الفكرة المذكورة ، فينتهي بنا إلى ما يتفق وحقيقة أحكام الجهاد في الاسلام .

إن اللواء خطاب ، وهو العسكري الذي يدون تاريخ الحرب في الإسلام ، تبنى في مقدمة كتابه المذكور فكرة « القتال في الاسلام حرب دفاعية » من وجهة عسكرية بحتة ، موضحاً إياها بقوله إن المسلمين لا يبدأون في حروبهم « بالإعتداء على أحد ، ولا يريدون من ورائها إلا حماية نشر الدعوة » وبعد أن درس « أهداف القتال في الاسلام » ردّ على الغلاة الذين يرون أن من غايات الجهاد في الاسـلام نشر الدعوة قائلاً : « إن القول بأن غرض القتال في الاسـلام هو نشر الدعوة هراء لا يستند إلى الواقع ، ولكن غرض القتال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هو حمـــاية حرية نشر الدعوة ، وشتان بين الغرضين ! ومع أن الحرب الاسـلامية دفاعية ، لأنها بعيدة عن الظلم والعدوان ، إلا أن هـــذا الدفاع غير مُسْتَكِين ، بل هو دفاع تعرّضي ، كما يسمى في المصطلحات العسكرية الحديثة ، ومعناه أن المسلمين لا يبـــدأون بالاعتداء ، ولكنهم يدافعون عن أنفسهم ضد كل اعتداء بالهجوم لسحق قوات المعتدين (١) » .

وهكذا يكون اللواء خطاب ، في تفسيره معنى « الحرب الدفاعية » أول من يعطي هذه الحرب أقرب معاني « الجهاد في الاسـلام » فإنها كما عرّفهـــا تشمل الغايات التي شرع القتال في الاسـلام من أجلهـا ، وإن ظلت في ظاهرها دون « الجهاد » في حقيقته .

(يتبع) عدنان الخطيب

(١) انظر ص ٤٧١ من الكتاب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net